الرواد أن يتلمسوا جوانب من تعامل الفرد الفردى فى بيئاتنا مع نفسه ومع الآخرين بشىء من التحليل . فالفرد العادى كان جزءاً أساسياً من همومهم ، ولم تكن مراميهم مقصورة إذن على إحداث تغير محدود فى دراسة معينة . لقد تواصلت وتشابكت الأهداف . ويلفت النظر لقارىء كتاب فن القول المشار إليه الآن أن المؤلف يستشهد أول ما يستشهد بقطعة مترجمة عن البهجة التى تغلب على طبيعة العصافير . ويرتبط الشعور بالبهجة ارتباطاً وثيقاً بشعور أصلى أراد الرواد له ذيوعاً . كانوا يقولون إن الفنان مبدع ، والعالم مبدع ، والخيّر مبدع كذلك ، وروح الإنسان مبدعة للعالم . وهنا نرتد إلى الملاحظة السابقة عن يقظة القارىء الوجدانية والتماس الجمال ، ومن الجلى أن روح الإبداع متميزة من البحث القديم عن التوافق والتحسين ، فالتوافق والتحسين كانا يعنيان أن ثم إطاراً مستقلاً عن الذات يحاول المرء الدخول فيه أو الانسحام معه . ولكن مطلب الروح الإنسانية بما تنطوى عليه من البهجة المبدعة لا تعترف بشىء ـ أحياناً ـ فى خارجها إلا إذا أعان على نموها . وربما كان التوافق والتحسين القديمان تعبيراً عن مشروعية بعض العوائق ، ولكن الروح الإنسانية التى سمعت من أنبائها طرفاً كانت قرينة الحرية الباطنية . وتلاقت مفهومات عدة فى هذا المجال على نحو ما نجد عند العقاد بوجه خاص حين يحاول توثيق العلاقة بين مفهومى الجمال والحرية .

كان مفهوم التوافق والتحسين اعترافاً بأن ماهو خارجى قائم بذاته ، على الفرد أن يسعى إليه . وكان مفهوم الإبداع الحر الجميل ـ فى المجتمع العربى النامى ـ يرى أن الحياة الداخلية للنفس تستوعب كل شىء[٣] .

ولا غرابة أن يتعرض تقويم الشعر فى هذا الجو لتغيير كبير مايزال محتاجاً إلى

---

(٣) كانت البلاغة تبحث أحيانا عن الأهم فى مناطق مختلفة ، وقد اتضحت مثلاً فى كلامهم عن نظام الكلمات وترتيب نسق الكلام . قالوا وهم يقدمون الذى هو أهم ، ولكن هل أخذت الأهمية طابعاً معيارياً واضحاً . لقد كانت تؤخذ من السياق الجزئى ، ويعطى لها أحياناً طابع نفعى أو احترازى ، وهذا نفسه مثار اعتراض . ولننظر مثلا فى كلام بعض المفسرين لقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم . هنا يقولون إن النظر يريد الفجور والطمع وليد الإطماع . هذا حسن . ولكن السياق ـ على هذا الوجه ـ يدور حول ناحية واحدة ، على حين أن غض البصر يمكن أن يكون ترجمة لرجوع المؤمن إلى نفسه . هذا الرجوع هو معدن الطمأنينة ، ويرتبط بالبحث عن نمو النفس الذى يحتاج إلى الاحتياط فى مواجهة العالم الخارجى جملة . مثل هذا المعنى يعتبر فى الحقيقة وليد الاهتمام بروح الإنسان التى أشرنا إليها . هذا الاهتمام لا نجد صداه متميزاً تماماً فى التفسير الأول .